العوائد اللبنانية

لحضرة الاب يوسف تآتي احد اساتذة مدرستنا الكلية (تابع لما سبق)

٤ المدرسة

ان مررت في لبنان قرب عين ماء عذب قراح في ظل جوزة او سنديانة بجوار كنيسة القرية فسمعت ضوضاء ورأيت عصابة اولاد جالسين على الارض متربعين شأن اهل بلادنا يقرأ هذا بصوت جهير ويكتب ذاك فيُسمع لقلم صرير يترنم البعض بلحن سرياني والبعض يردّد على مسامع صغار العلوات او آيات الكتاب المقدس ورأيت في الوسط رجلاً معبساً بيده القضيب وعلى حقوه دواةٌ فقل هذه المدرسة وهذا الرجل المعلّم يحمل في زناره الدواة التي قال عنها حزقيال (٩ : ٢): « اذا بستة رجال مقبلين ..... وفي وسطهم رجل لابس كتّانًا على حقوه دواةُ كاتبٍ »

لا يكاد الولد يصل الى الرابعة من عمره الّا ويُزَجّ في المدرسة كالمجرم في سجن منتم قاتم يُرسل صباحًا فيرجع مساء ولا يرى من الدنيا نعيمًا ولذّة. عند الصباح تهيئ الوالدة لابنها « تروِيقَتَهُ (١) » اي فطورَهُ فتضعها بقماش تحفظهُ به وكتبهُ تُوضع في كيس يُدعى « الحمّال » ويُعلق في الكتف فعلى هذا المنوال يذهب الولد الى المدرسة وحدهُ او مع رفيق لهُ

فاوّل يوم يصلُ الى المدرسة يكتب لهُ المعلم أحرف الهجاء على ورقةٍ ويلصقها على لوحةٍ صغيرة يعلّقها التلميذ في عنقه فلا يزال اياماً واللوحة على صدره الى ان يتعلم الاحرف. بعدئذٍ يأخذ بدرس الزبور الالهي « المزامير » سطرًا سطرًا وورقةً ورقةً الى ان يفرغ منهُ تماماً وفي ذلك اليوم يكون عيد في المدرسة تُشدّ ايدي الولد المذكور خلف ظهره ويقودهُ ارفاقهُ مع الاستاذ الى بيت ابويه قائلين: « يا من يفكّ المكتوف ويعمل معنا ما المعروف ». فحين وصولهم يستقبلهم الوالد والوالدة واهل البيت فرحين مسرورين فتحرم الحبال التي كُبّل بها ويُغرّق على الارفاق « الحلوان » ويكون عادةً زبيب وقضامة او غيرها من الحلواء واما الاستاذ فكثيرًا ما ينفحهُ الوالدان بشيء من الدراهم فيقال

(١) التروِيقة عند العامة كالرانق في اللغة وهي ما يؤكل ويشرب على الريق

« استنكَ فلان ولدَهُ » كانَّ الولد اسير يقدّم عنهُ فدية والّا بقي اسيرًا . وتقول العامّة اذا تورّط احدهم في امر عسير يا فلان استفكني اي نجني(١

(الكتابة) بعد درس « المزامير » يبدأ الولد « بالكتبية » (دهمحة) وهي الكتابة ويأخذ بدرس السريانيّة لكي يخدم القداس ويشارك الكاهن في صلوات الساعة في الكنيسة (لكي يتعد على القرّاية) غير انهُ يقتصر على ان يحسن القراءة دون ان يفقه معنى الكلام واللبناني يفتخر اذا ما خدم ولدهُ في الكنيسة ويعدّ ذلك من آلاء الله وطوله . واما الكتابة فلا يُدعى الرجل معلّمًا ماهرًا ان لم يتقنها واذا كان الشرقي جميل الخطّ حسنهُ فمقامهُ رفيع ومنزلتهُ سامية بين قومهِ ومن ثمّة كان رهطٌ كثيرٌ يتفرّغون لاجادة التحرير وحسن الخطّ والتسطير والنصارى يُعنون بالخطّ المعروف بالكتانيّ وقد امتاز منهم الحلبيّون بحسن الكتابة . اما الخطّ السرياني فكان اللبنانيّون يهتمّون بهِ ويتّخذونهُ لتآليفهم الملّيّة وكتبهم الطقسيّة التي لم تنشر بالطبع قدمًا فكانوا يقضون ليلهم ونهارهم في نسخ الكتب المذكورة ويبيعونها باثمان حسنة . على ان العرب اجمالًا نبغوا في الخطّ وجعلوهُ في مقام فنّ التصوير فقاقوا غيرهم من الامم . فليتأمل طلبة المدارس في ايامنا

وطريقة الكتابة في المشرق تختلف عن طريقة الفرنجة فنحن نبدأ من اليمين الى الشمال ثم نكتب قاعدين متربّعين ونحمل الورق بين يدينا فحينما وُجدنا يرافقنا المكتب (الطاولة) . ثم اننا نسرع في الكتابة جدًّا ونُكثر من الحبر فترسم احرفًا ضخمة جافية فان خفنا عليها ان تطمس اذا قلبنا الورق اخذنا رملًا من رملةٍ لنا وكبنا منهُ على الخطّ والافرنج يستعيضون عن الرملة « بالورق النشّاس » (papier buvard)

(طريقة التدريس) بعد حضور الذبيحة الالهيّة في الكنيسة يأتي الاولاد الى المدرسة فيدعو المعلم واحدًا فواحدًا ويقرأ امامهُ أمثولتهُ مرّة او مرّتين ويصرفهُ لكي يدرسها زمانًا ثمّ بعد حين يدعوهُ ليختبرهُ أتعلّم الولد درسهُ ام لا . اما تقسيم المدارس الى صفوف متتالية فلا يعرفها الاساتذة عندنا فان كل ولد يدرس امثولتهُ وحدهُ لا رفيق لهُ فيها ولا شريك وقد يحدث ان تلميذًا يفقه في النهار عشر امثولات والمعلّم

١) قد اعتاد الاهلون كذلك ان يتحفوا الاستاذ بالهدايا اكرامًا ومودّة وخاصّة في الاعياد والمرافع وتسمى هداياهم « اوانثذ » عيديات وتكون مأكولًا او شرابًا او طُرفةً من الطُرَف

يسمع له قراءتها وغيره لا يتعلّم شيئاً اما لكسل منهُ وتوانٍ او لسوء ذهن وخمود قريحة

ثمَّ قبل الظهر الساعة العاشرة يأخذ الجميع بدرس التعليم المسيحي فالذين يحسنون القراءة يدرسون في الكتب ويحفظون على ظهر البال عقائد الدين واقوال الآباء القديسين الاطهار والذين لا يعرفون القراءة بعدُ يفرز لهم الاستاذ ولداً من الفطنين البارعين يردّد امامهم الصلوات كلمةً كلمةً وهم يقرنون معهُ الى ان ترسخ في ذهنهم ويتعلّموها

وقد اعتاد الاولاد في هذه الاقطار على الدرس بصوت جهير خلافاً لما يصنع الافرنج الذين يدرسون صامتين فان دخلتَ مدرسة وسمعتَ جلبةً واختلاط اصوات فتلك شارةٌ حسنة وامارة باهرة وان كان ثمَّ هدوء وسكينة فأطناب الكل مضروبة واجنادهُ فائزة مظفَّرة

(طرائق التأديب) هذا وان الغلام في لبنان يرضع مع الحليب شرف النفس والأنفة ودماثة الاخلاق فضلاً عن احترام الدين والميل الى العبادة والصلوات ومرضاة الله فيحمل على الدرس والطاعة لو ذكرتهُ ان تلك ارادة الله ورغبة معلمهِ العزيز ولكن لا يخال لاحدٍ ان الاستاذ يغفل عن القصاص فلا يتخذهُ لهُ سلاحاً بل ان قصاص المعلّم يُضرب فيهِ المثل ومن اقوالهم الشائعة: «راح العيد (الفصح) وفرحاته وجاء المعلّم وقتلاته». فالاستاذ يضرب المذنب بالقضيب ضرباً يوازي الجرم ولا ترى والداً او والدةً تتشكّى من استاذٍ يضرب ولدها بل كثيراً ما سمعنا القوم يقولون: هذا ابني «العظم لي واللحم لك» ادّبهُ وهذّبهُ وعلّمهُ وثقّف اودهُ واضربهُ ضرباً شديداً اذا اساء الادب وخالف النظام.

ومن قصاصاتهم «الفلق» وما ادراك ما هو الفلق. عدّةُ الاستاذ وسلاحهُ يستهل عليهِ كلَّ حزنٍ وعِير ويبلّغهُ المُنية في الامر العسير نافي الكسل وموطّد اركان النظام يخافهُ الولد ولا خوف الجرم من الاكبال «نعوذ برب الفلق من الفلق شرَّ ما خلق». فان قيل: صفهُ. قلنا: هو عودٌ يُربط حبل من احدى طرفيهِ الى الآخر وتُجعل رجلا الجرم داخل ذلك الحبل فيُضرب عليهما ضرباً مبرّحاً وهذا القصاص انما يُجازى بهِ من يهرب من المدرسة. يرسل المعلّم اولاداً فيأتون بهِ مرغماً ثمَّ يُشدُّ برجليهِ الى الفلق ويصفعهُ عشر صفعات او عشرين وقد يجاوزها. فالمعلم اذن لا يقتصر على الذرائع الادبيّة ابتغاء لنجاح تلامذتهِ بل يلجأ مراراً الى الضرب والقصاص غير انهُ يتحاشى ما استطاع مثل

هذا الدواء. فلا يجرّعهُ الّا الذين لا يعدل فيهم اللطف والمحبّة والحماسة فيؤول ذلك لفائدتهم ويكون ترويعًا لغيرهم اذا وسوس لهم شيطان الكسل

وما يدلّ على خوف التلامذة من القصاص غناء يتغنّونهُ يقول منهم قسم « يا معلّمنا جِلْنا عَمَّا تهرب كلّنا يا معلمنا حلّ الجلّة صارت الشمس على التلّة » فيجيب الباقون « يا معلمي ما احلكم والعصا تلتكم » فالخوف من الاستاذ يضع في قلوب التلامذة اجلالًا لهُ واعتبارًا واكرامًا لا نهاية وراءها فتراهم يهابون غضبهُ ويخشون توبيخهُ ولو اسعدتهم السعادة فوصلوا الى أعلى المراتب وأسمى الوظائف حتى ان التلميذ ان رقي الى درجة الكهنوت الشريفة فلا يسمح لمعلّمهِ ان يقبّل يدهُ خلافًا لما يصنع غيره من الناس في بلادنا. ثمّ ان لقب المعلّم الذي يلقّب بهِ الاستاذ لهو عظيم جليل سامٍ يُعطى للكهنة نوّاب المسيح فاللبناني يقول للكاهن « يا معلمي » كقول اليهود للمسيح لذكرهِ المجد (يو ٣: ٥) يا معلّم نحن نعلم انك اتيت من الله معلّمًا

انّهُ لبَونٌ عظيم بيننا وبين قوم من بلادنا يزدرون بالاساتذة ازدراء ويعتونهم بصفات الاحتقار والمذمّة قائلين: فلان ابله كاستاذ. فلان ثقيل غليظ كانهُ الاستاذ فنعمَ ما قال احد الادباء جوابًا لشروى هؤلاء:

افضل استاذي على نفس والدي وان ثاني من والدي الجسمُ والاصلُ

(ادوات الكتابة) الدواة تكون الدواة عادةً من نحاس توضع على الحقو بها يمتاز الكتّاب والاساتذة وهي تتركّب من قناة مستوية مثقوبة تخزن فيها الاقلام ومن وعاء للحبر وهو ما يُرى من الدواة الموضوعة في الزنّار وهذا الوعاء يُدعى «البقسة» من السريانيّة بَقصا. وقد غلب معنى البقسة على وعاء من خزف يوضع فيهِ الحبر ويستعمل كالدواة الافرنجيّة فلا يُحمل

الحبر ليس عندهم حبر الّا الاسود ويدلّ على ذلك تشبيههم كلّ ذي لون اسود حالك بالحبر يقال: « اسود مثل الحبر » ويأخذونهُ من عشب ينبت في جوف الاودية او سفوح الجبال ويُعرف « بحشيشة الحبر » تأخذ النبت اخضر فتغليهِ بالماء ثم تضيف اليهِ قليلًا من العفص وتضعهُ بالشمس فيجمد هنةً سوداء ويزيدون عليهِ سكّرًا وصمغًا عربيًا ليصير لامعًا

الورق يأتينا الورق من اوربّة. غير انهُ كثيرًا ما يُجزأ الى طلاحي مستطيلة صغيرة

العرض ثم يُدرج درجاً ويُلف حزماً مجوَّفة وعلى هذا النمط ورق العوذات والحروز التي يكتبها المسلمون تكون قطعاً طويلة جداً اما الكتابة على الورق المخيَّز (papier rayé) فلم يألفها العرب

المرملة المرملة وعاء من نحاس او تنك باعلاهُ ثُقب جمَّة كأنَّهُ منخل يوضع فيها الرمل ويُكب على السطور التي لم يجفَّ حبرها ويأتي الكتبة بهذا الرمل فمنهم من يأخذ الرمل العادي ومنهم مَن يستعمل مادةً ناعمة كالرمل ذات ألوان فمنها الاخضر والازرق والاحمر الى غير ذلك من الالوان الناضرة الزاهية

شرح بعض جُمل تقال في المدارس واصحابها يُقال: « فلان يعرف المزامير من اللوح للوح او من الجلد الى الجلد » اي يعرفهُ برمَّته لانَّ الكتب قديماً كانت اوراقها تُشدّ الى بعضها اما بلوحتين واما بجلد. ويقولون: « فلان قراءتهُ ناصحة » او « قراءته ضعيفة » اذا كان يحسن القراءة او يسيئها. و« فلان يفكّ الاسم » اذا كان يستطيع ان يقرأ مكتوباً « وفلان يعلّق الاسم » اذا كان لهُ بعض المام بالخطّ. ويُقال للولد « روح على المعلم » اي اذهب الى المدرسة. ويُقال: « فلان معلّم حابون » تهكُّماً. والحلبون عندهم النابغ الجيد وما استعملت الّا في معرض الذم. يقول المعلم للتلميذ: « يا معلمي ادرس » والمعنى انت ايها الولد الحبيب الذي انا ابتاذه ادرس. هكذا الوالد يقول لولده « يا ابي » والام لابنها « يا امي » الخ. وهذا من غريب التركيب. ويقولون: « فلان ذهنهُ مفتوح ومفتَّح » اذا كان ثاقب الذهن متوقد القريحة وان كان قليل الذكاء. يقال فيه: « ذهنهُ مُطلَّس » و « هذا التلميذ يقرأ المسحي » معناهُ ان لهُ الباع الطولى في الكتابة او هو نادرة داهية. ويُقال « لا يعرف الالف من العصا » او « الالف من المأذنة » للرجل العاميّ الذي لم يتعلّم العلم او الغرُّ الجاهل

وما قلناهُ في المدارس اللبنانيَّة لا يصحُّ في كلّ انحاء لبنان واما المدن فمدارسها الآن على غاية ما يرام من الترتيب والنظام فيدرّسُ فيها المعلّمون البارعون على طريقة جديدة اقتبسوها من المرسلين الاوربيين. بل جرت هذه الاساليب الحديثة في كثير من قرى لبنان الكبرى جريًا على طريقة التعليم في المدن ولا جرم فانَّ في هذا الترتيب الجديد فضلاً كبيراً على النمط القديم لما فيهِ من الفوائد لتهذيب عقل الاحداث واصلاح طباعهم